باب الثاني

مبادئ عمليّة التعلّم

الباب الثاني

مبادئ عمليّة التعلّم

التعلم عملية ذهنية طبيعية مستمرة من المهد إلى اللحد. ومن المعلوم أن المعلومات والمقدورات والرغبات للمتعلمين تختلف باختلاف ظروفهم وبيئتهم التي إليها ينتمون. كل مولود يولد على فطرة سليمة وعلى استعداد شامل وصلاحيات متنوعة لاكتساب أي نقطة تلقى إليه. فمن الضروري وضع أحكام وضوابط في مجال التعلم لتكون عملية الدراسة فعّالة مؤثرة في جو صحي. ومن المعترف لدى الجميع أنّ الإنسان إنّما يميّز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلاّ فغيره من الدوابّ والسباع والحيوانات أكبر جسما منه، وأقوى قوة، وأكثرأولادا وأطول أعمارا، وإنّما مُيّز على الحيوانات والدواب كلّها بعلمه وبيانه، فإذا عُدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهي الحيوانيّة المحضة فلا يبقى فيه أيّ فضل، فحاجته إلى العلم فوق حاجة جسمه إلى الغذاء، لأن جسمه إنّما يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرّتين وأمّا حاجته إلى العلم بعدد الأنفاس، وقد ذكر الإمام أحمد رحمه الله هذا المعنى بعينه فقال: "الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأنّ الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرّة أو مرّتين والعلم يحتاج إليه في كلّ وقت"[1] ومن هذا نفهم ضروريّة التعلّم للإنسان. والإسلام يحثّ على العلم والتعلم كثيرا، ويعطي على ذلك أجرا عظيما، ويرفع منزلة العلماء كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام قوله "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة". فهذا الحديث و غيره واضح في الحث على طلب العلم والتسابق إليه ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى. ومما لا ينسى أنّ دور الوالد ومسؤوليته ليست بالسهلة اليسيرة، بل عليه تبعات ضخمة وواجبات غير مردودة ومهامّ شاقّة في سبيل تزويد ولده بالمعرفة الصحيحة والعلم النافع، فإنّ الأب هو المكلف الأول بتعليم ولده،

---

١) العلم فضله وشرفه للعلاّمة شيخ الإسلام ابن قيّم الجوزية.

والمحافظة عليه في ذلك، وعدم الاعتماد على المدرسة فقط، بل يستعدّ بنفسه ويشدّ مئزره لتعليم ولده دينيا ودنيويّا.

ويحذرالإمام ابن القيم رحمه الله الآباء من إهمال تعليم الأولاد ورعايتهم، فيقول: "من أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء، وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم".

فعلى الأب أن لا يهمل في تكوين مكتبة صغيرة في بيته، فيختار غرفة من المنزل لوضع الكتب المفيدة، أو يجعلها في غرفة المعيشة، لتكون قريبة من الجميع، ولتعم بها الفائدة، مراعياً تنوع المصادر والمراجع لتناسب أعمار الأطفال ومستوياتهم، كما ينبغي له اتخاذ بعض الوسائل المناسبة لترغيب الأطفال في التعلم وجذبهم إليه. ولا بأس بالمكافآت المالية لترغيبهم في العلم، فقد كان السلف من أمثال إبراهيم بن أدهم رحمه الله يرغّب الصّبي في التعلم عن طريق المكافآت المالية. والمقصود هو أن يتخذ الأب الوسائل المشروعة المرغّبة للأولاد في التعلّم وتحقيق رغبتهم وإشباع ميولهم العلمية.

ومما لا ينكره أحد، أنّ المتعلمين في كل عصر ومصر هم الكرماء والشرفاء عند الله وعندالخاصّة والعامّة من النّاس، قال الإمام العلّامة ابن القيّم الجوزية في كتابه- مفتاح دارالسعادة - "وإنّما جعل طلب العلم من سبيل الله لأنّ به قوام دينه كما أنّ قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين- جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير، والثاني: الجهاد بالحجّة والبيان وهذا جهاد الخاصّة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدّة مؤنته وكثرة أعدائه"[٢].هم الذين يحملون أسمى رسالة حملها صلى الله عليه وسلّم وإخوانه المرسلون، فلذاعليهم أن يؤدّوها في صدق وأمانة وإخلاص حتى ينالوا رضا الرحمن ويحوزوا القبول من

٢)العلم فضله وشرفه للعلاّمة شيخ الإسلام ابن قيّم الجوزية.

الناس. ورسولنا الكريم نعم المقتدى به في مجال التعلم إذ جلس أمام أستاذه جبريل عليه السلام وحفظ منه ماشاء الله أن يحفظ وعمل به ما عمل ونشره أمام قوم عدول لا يزال طائفة منهم يحملون ويؤدّون هذه الأمانة من جيل إلى جيل. فلما كان هذا التعلّم عبادة القلب، وطلبه أفضل الطاعات والمهن، كان لزاما على طالبه أن يعلم المبادئ لهذه العمليّة ويحصّل آدابها لكي يتحلى بها في سلوكه سبيل العلم، ويلزمها في حياته ليكون تعلّمه مفيدا ونافعا له وللمجتمع، ويتمسك بها في ليله ونهاره ليكون علمه ذا نوروبصيرة، فمنها ما يأتي:

إخلاص النية لله تعالى :

قال الله تعالى في محكم تنزيله "وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ"[٣]. فعلى المتعلّمين أن يحسنوا النّية في طلب العلوم بأن يقصدوا به وجه الله عز وجلّ فقط، والعمل به، وإحياء الشريعة السمحة النيّرة البيضاء، وتنوير قلوبهم النّقيّة، وتزكية ظواهرهم وباطنهم بنور العلم والمعرفة.

ومما لا يشكّ فيه أحد، أنّ عملية الدراسة طاعة وعبادة، وإخلاص النية لله تعالى واجب في جميع العبادات والطاعات، والإخلاص في التعلم أن يبتغي به وجه الله تعالى والعمل به وإحياء الشريعة النبوية وتنوير قلبه وتصفية باطنه والقرب من الله تعالى و التعرض لما أعدّ الله لأهله من رضوانه وعظيم ثوابه لا لغرض مادّي من تحصيل الرياسة والجاه والمال ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له وتصديره في المجالس ونحو ذلك فيستبدل الأدنى بالذي هو خير.

فإن كان همّ المتعلم تحصيل شهادة أو تبوّء منصب لكسب منافع مادّية فحسب، فإنّه لا يكون مخلصا في طلبه وتعلّمه فقد قال ﷺ " مَن تعلَّمَ عِلما مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجهُ اللهُ، لا يتعَلَّمُه إلا ليُصِيبَ بِهِ عَرَضا مِن الدُّنيا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يومَ القِيامَةِ"

٣) سورة البيّنة، الآية ٥.

يعني: رِيحها. ولعظم أمر النية قال سفيان الثوري: "ما عالجت شيئا أشد عليّ من نيتي". وقال الإمام الغزالي رحمه الله: فما دام يفرق بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو خارج عن صفو الإخلاص.

وقال الفضيل رحمه الله : ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال أبوبكر الورّاق رحمه الله :لا تطلب المنزلة عند الله وأنت تطلب المنزلة عند الناس. فعلى الدارس تحسين نيته قبل كلّ شيء لقوله ﷺ " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلّ امرئ ما نوى". ولا يقصد المتعلّم بالعلم أغراضه الدنيوية من تحصيل الرياسة، ومباهاة الأقران والجاه، والمال، وتعظيم الناس له، وتصديره في المجالس، ونحو ذلك فيستبدل الأدنى بالذي هو خير، ولا يكون مراده بالتعلّم، جمع حطام الدنيا فالعلم عبادة من العبادات وقربة من القرب، فإن خلصت فيه النية قبل وزكا ونمت بركته، وإن قصد به غير وجه الله حبط وضاع وخسرت صفقته، وربما كان ذلك سبباً في فوات تلك المقاصد فلا ينالها فيخيب قصده، ويضيع سعيه، نعوذ بالله من ذلك.

تطهيرالقلب:

ورد في الحديث "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" وقال سهل: "حرام على قلب أن يدخله نور وفيه شيء مما يكره الله عز وجل" . فالعلم كما قال بعضهم:" صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن، فكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديئها".

فالعلم نور يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده ولا يعطيه إلا لمن يطهر قلبه من الصفات الرديئة والأخلاق الذميمة، والقلب مهبط الملائكة ومحل استقرارهم ولا يدخلون إلى قلب ملآن من كبر وعجب وحسد وأخواتها كما كان منزل العلم والنور

والإيمان. ولذا يجب على المتعلم أولا تطهير باطنه أي القلب من الصفات الذميمة. وقد قال صلى الله عليه و سلم لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب. فالقلب هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم كما أشار إليه الإمام الغزالي رحمه الله والصفات الرديئة مثلا الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة في القلب فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرؤون عن الصفات المذمومات فلا يلاحظون إلا طيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا. قال ﷺ "ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[٤] والقلب هو منظر الرب فعلى طالب العلم أن يطهّر قلبه وتصفيته وأن لا يدنّسه بالذنوب والخطايا فإنّ الله سبحانه ينظر إليه ولا ينظر إلى الأجسام والصور.

٤) رواه البخاري رحمه الله.

تنظيم الأوقات:

قال الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله "والعصر، إنّ الإنسان لفي خسر، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر"[٥] ومن أهمّ مبادئ التعلم تنظيم الأوقات، حيث قسم به القرآن الكريم تنبيها على فضله، وقد قالت العلماء "الوقت سيف إن لم تقطعه يقطعك". وتنظيم الوقت يساعد على إتمام أعمال كثيرة في وقت قصير. فالوقت نعمة إلهية تستوجب منا الشكر، ولقد خلق الله السموات والأرض وسخر الشمس والقمر والليل والنهار لتستقيم الحياة، فقال تعالى في سورة إبراهيم "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ"[٦]. وفي هذه الآية الكريمة يمتن الله تعالى على عباده بجملة من نعمه التي لا تحصى، ومن هذه النعم نعمة الليل والنهارالذي يدورالوقت حولهما ويقوم عليهما ولكن كثيرا من الناس يغفلون عن هذه النعمة الجسيمة الغالية. وطالب العلم فإنه إذا نظّم أوقاته واستفاد ولو شيئا قليلا في كل يوم فإنه على ممر الأيام وعلى توالي الأيام تكون حصيلته كثيرة وتكون حصيلته ضخمة لأن الشيء إذا جاء في كل يوم ولو قل فإنه على ممر الأيام وعلى طول أيام السنة يحصل الإنسان الشيء الكبير، فلو أن الإنسان فقه في كل يوم مسألة وتمكن من معرفة حكم مسألة ودرسها يكون بعد مضي سنة حصل على ثلاثمائة وأربع وخمسين مسألة أو أقل أو أكثر، وإنما الإهمال والتفريط فيها فهو الخسران المبين، وقد روى البخاري في الصحيح وهو أول حديث بكتاب الرقاق أن النبي ﷺ قال "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ"، فهذا الفراغ وهذا الوقت إذا ما قتله الإنسان وشغله لتحصيل شيء غير مفيد فإنه يكون وبالا عليه لا ريب فيه.

---

٥) سورة العصر.
٦) سورة إبراهيم، الآيات ٣٢، ٣٣، ٣٤.

فعلى طالب العلم أن يحرص على تشغيل وقته كلّه في تحصيل العلم وتدوينه وعلى مذاكرته بين زملائهم عندما تحصل اللقاءات فيما بينهم في أي مناسبات، لا يكون ذلك خاصاً بمجالس العلم ومجالس الدروس بل إذا التقوا في الطرقات أو التقوا في المناسبات أو في أي مكان يكون شغلهم الشاغل هو البحث عن العلم والمذاكرة في العلم وهذا هو الذي ينميه. ولهذا أوصى بعض العلماء بنيهم بالمحافظة على العلم وفي تحصيله وفي الإبقاء عليه وبيان ميزته وفضله على غيره وأنه يزيد وينمو بمذاكرته والاشتغال به وأنه ينقص بإهماله وعدم مذاكرته. فقد قيل"وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وأجود الأماكن للحفظ كل مكان بعيد عن الملهيات، كالنبات، والخضرة، والأنهار، وقوارع الطرق، وضجيج الأصوات، لأنها تمنع من خلو القلب غالباً ".

قال الخطيب: "أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم وسط النهار ثم الغداة".

وقال: "وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع"[٧].

ويدل على أهمية الوقت أنّ الله سبحانه قد أقسم به في قرآنه المجيد حيث قال "وَالْعَصْر، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ. ومما أجمع عليه المفسرون أنّ الله لن يقسم بشيء إلا لأجل عظمته عنده. وصدق رسولنا ﷺ حين قال "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ"[٨] فعلى المسلم العاقل أن يجدّ في شكر المنعم على نعمة الوقت وأن يغتنمه في كل مفيد نافع. والوقت أمانة، شأنه في ذلك شأن سائر الأمانات التي سيسأل عنها الإنسان يوم الفزع الأكبر. وقد قال ﷺ فيما قال عن أحوال يوم القيامة "لا تزولُ

٧) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لمحمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة.
٨) أخرجه البخاري، والترمذي.
٩) أخرجه الترمذي.

قدَمَا عبد يومَ القيامة، حتى يُسألَ عن أربع : عن عُمُره فيما أفناه ؟ وعن عِلْمِهِ ما عمِل به؟ وعن ما له من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟"[٩]. وهو من أثمن ما يمتلكه الإنسان، فالوقت هو الحياة وهو رأس مال الإنسان، وإذا ضيّعه فلا يمكن بأي حال أن يسترده. وقد شبهه بعض الجهال بالذهب وهذا سفاهة منهم لأنه أغلى وأثمن وأنفس من كل نفيس. والمؤمن وحده يعرف قيمة الوقت، لمعرفته بالغاية التي من أجلها خلق قال تعالى"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ"[١٠]

وقد كان سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عنهم أشدّ الحرص على الانتفاع بأوقاتهم واغتنامها واستثمارها، فقد كانوا يسابقون الساعات ويبادرون اللحظات ضنا منهم بالوقت، وحرصا على أن لا يذهب منهم سدى .

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه "ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي".

وقال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله "إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما".

وقال الحسن البصري رحمه الله "يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب بعضك أن يذهب كلّك، وقال أيضا: أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشدّ منكم حرصا على دراهمكم ودنانيركم".

فهذا جاحظ فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوّله إلى آخره أيّ كتاب كان، حتى إنّه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر في الكتب .
وهذا الإمام الهمام جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى وقد عاش قرابة خمسين سنة

---

١٠) سورة الذاريات، ٥٦-٥٨

وألف ما يزيد عن خمسين مؤلفاً وكانت حياته زاخرة بالعلم والدعوة، ومع ذلك كان يقول : يا ليت الوقت يباع فأشتريه.

"وبحرص سلفنا الصالح على أوقاتهم علا قدرهم وسما شأنهم، وخلد ذكرهم، أما في زماننا هذا فإن من أبرز أسباب تخلف المسلمين تفننهم وتفانيهم في تدمير وإهدار أوقاتهم في المقاهي والملاهي والطرقات وأمام التلفاز والتسجيلات الصوتية والمرئية وفي غير ذلك من المجالات التي لا فائدة منها ولا ثمرة من ورائها"[١١].

اغتنام شبابه في التحصيل.

على المتعلم أن يغتنم وقت شبابه في طلب العلم فإنّ التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، وإذا كبرالإنسان وضعف سمعه وبصره وضعفت قوته الحافظة والذاكرة فيصيبه الملل في كلّ شيء، وقد قال ﷺ لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك[١٢]. ولا يغتر بخدع التسويف والتأميل، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها، ويغتنم وقت فراغه ونشاطه وزمن عافيته وشرخ شبابه ونباهة خاطره وقلة شواغله قبل عوارض البطالة أو موانع الرياسة، فإنّها الوقت المناسب لطلب العلم وإذا فات لا يعود، وكم من أناس ندموا على ضياع وقتهم في الصغر وقالوا: يا ليتنا نردّ إلى أيّام الصغر فنكون من المجتهدين لأنّ ساعة علم واجتهاد في الصغر تغني عن تعب سنين في الكبر. ولم نر أحدا قط ندم على التعلم في الصغر وإنّما رأينا الكثيرين يندمون على ضياع وقتهم سدى وعدم حصولهم على العلم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "تفقهوا قبل أن تسودوا"[١٣]وقال الشافعي رحمه الله: "تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه"[١٤]. ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن إتمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل فإنها كقواطع الطريق، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد

١١) يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر للدكتور أحمد الشرقاوي توزيع دار السلام بالقاهرة.
١٢) أخرجه النسائي والحاكم في المستدرك .
١٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٥٤٠-٨.
١٤) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣٤.

عن الوطن لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وكذلك يقال: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك. فعلى طالب العلم أن يتعلّم زمن حداثته وخلوّ فكره من شواغل الحياة وكسب العيش فإنه هوالوقت المناسب لطلب العلم .

استمراره في طلب العلم إلى آخر العمر:

قال صلى الله عليه وسلّم :مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لاَ يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لاَ يَشْبَعُ والحذر من الشعور بالاستغناء والاكتفاء والاستعلاء، ولنا في سلف الأمة خير مثال في هذا الباب، وللإمام عبد الفتاح أبوغدّة[١٥] كتاب باسم "العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزّواج" يبيّن فيه تواريخ العلماء الذين اشتغلوا بالعلم إلى آخر لحظة من حياتهم يقول في تقدمة كتابه وبعد فهذا موضوع طريف ومبحث منيف، تحدثت فيه عن العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزّواج، ولم أقف على من دوّن فيه شيئا من قبل، فرأيت أن أكتب فيه هذه الكلمات، وأجمع فيه هذه الصفحات، وسمّيته"العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزّواج". اقتصرت فيه على ذكر أكابر أئمة العلم والدين، من المفسرين، والقرّاء، والمحدّثين، والفقهاء، والقضاة، والمفتين، والأدباء، والمؤرخين، والنحاة، واللغويين، والزهّاد، والعبّاد، ممّن عرف فضلهم، واشتهر دينهم وعلمهم، ووهبوا حياتهم كلّها للعلم، وعاشوا له عزّابا متفرغين، وحرموا أنفسهم من أغلى متع الحياة المشروعة: متعة الزواج والنسل والأولاد، بغية الازدياد من العلم وخدمة الدين ونفع المسلمين. فهذا الإمام الطبري رحمه الله لم يتوقف عن طلب العلم حتى قبل موته بلحظات. قال الأستاذ محمد كُرد علي في" كنوز الأجداد" في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري: "وما أثرعنه أنّه أضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة، روى المُعافى بن زكريا عن بعض الثقات، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل

١٥) ولد بحلب سنة ١٣٣٦ وتوفي بالرياض سنة ١٤١٧ ودفن بالبقيع الشريف رحمه الله وغفرله.

موته، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها، فذكر هذا الدعاء عن جعفر بن محمد[١٦]، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات". قلت: رحمك الله تعالى يا أبا جعفر، لقد استنفدت الجهد والدقائق والثواني في خدمة العلم وتحصيله، ونشره، وتدوينه، فكنت إماما وقدوة في حياتك وبعد مماتك، وتوفي لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠،عن ٨٦ سنة، عزبا لا زوجة حوله ، ولا ولد له بعده، وإنّما خلّف وأبقى من العلم المؤلّفات الحافلة، ما لا يُنسى ولا يُجهل على وجه الدهر، فكانت تآليفه الكثيرة النادرة، ذرّيته الباقية المذكّرة به البارّة، بل كانت أدوم تذكيرا به من النسل والأولاد، رحمة الله عليه. وصدق الإمام ابن الجوزي رحمه الله إذ قال: كتاب العالم ولده المخلّد. وقال أبوبكربن كامل رحمه الله عن الإمام الطبري: ولقد حرصت مرارا أن يستوي لي مثل ما يفعله، فيتعذّر عليّ اعتياده! وما سمعته لاحنا، ولا حالفا بالله عز وجلّ وكان حسن القيام على نفسه. وهذا الإمام أبو نصر السِّجْزي رحمه الله، قال عنه أبو إسحاق الحبّال رحمه الله " كنت يوما عند أبي نصر السجزي فدقّ الباب، فقمت ففتحته، فدخلت امرأة وأخرجت كيسا فيه ألف دينار، فوضعته بين يدي الشيخ وقالت: أنفقها كما ترى، قال: ما المقصود ؟ قالت : تتزوجني، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك، فأمرها بأخذ الكيس وأن تنصرف. فلما انصرفت قال: خرجت من سجستان بنية طلب العلم، ومتى تزوجت سقط عني هذا الاسم، وما أوثر على ثواب طلب العلم شيئا". وهكذا واقعات كثيرة تدلّ على حرص سلفنا الصالح على العلم وتحصيله والاشتغال به، لو كتبنا التفصيل فيها لطالت أوراقنا فمن يرد التفصيل فاليطالع كتاب "العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزّواج" للإمام عبد الفتاح أبوغدّة رحمه الله وتقبل الله منه هذه الخدمة الجسيمة الطريفة للعلم والدين فإنّ فيه ما لا عين رأت في هذا الموضوع، وما يشفي الغليل فيه، والله أعلم .

١٦) لعلّه يشير لدعاء الفرج المعروف عن جعفر الصادق : اللهمّ احرسني بعينك التي لا تنام ....انظره في " القول البديع للسخاوي رحمه الله.

مصاحبة الأخيار:

قال الله تعالى "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً"[١٧] قال ﷺ "المرءُ على دِين خليله، فالينظرْ أحدُكُم مَن يُخَالِل".[١٨] فعلى طالب العلم أن يختار من الخلاّن والأصدقاء من يعينه على التعلم والتزوّد منه. وكثيرا ما نرى من الطلّاب تركوا التعلّم لأجل رفقائهم السوء بعد ما كانوا من محبّي العلم والمعتكفين عليه، وهذا من الخسران المبين فإنّ الله تعالى آثرهم على غيرهم للعلم ووفّقهم للتّعلّم والتّفقّه في الدين ثمّ استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولقد بين الله أحوال الكافرين وإظهار حزنهم وتأسّفهم وقولهم يوم القيامة على اتخاذهم قرناء سوء بقوله تعالى "يا ويلتى لَيْتَنِي لم أتّخذ فلانا خليلا" ولكن أنّى لهم الذكرى ولا تنفعهم الذكرى يوم يعضّ الظالم على يديه. فعلى طالب العلم أن يترك مصاحبة من كثر لعبه وقلت فكرته، فإن الطباع سراقة وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة، والذي ينبغي له أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه. وإذا احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً، ديناً، تقياً، ورعاً، ذكياً، كثيرالخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، وإن ضجر صبره.

الاجتهاد والصبرفي طلب العلم:

قال الله تعالى "وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ"[١٩] و قد كرس كثير من علمائنا حياتهم لخدمة هذا العلم الشريف، وبذلوا من أجله جهد طاقتهم وكل ما في وسعهم، فتجشموا قطع المسافات الشاسعة بما في ذلك من تعب ونصب وعذاب باحثين عن العلم، ولا يبتغون من ذلك مكسب دنيوي، فالدنيا لم تكن في حسابهم يوماً من الأيام، وإنما كان هدفهم امتثال أمر الله سبحانه وتعالى .

---

١٧) سورة الفرقان الآيات ٢٧- ٢٩
١٨) أخرجه أبو داود، والترمذي .
١٩) سورة التوبة الآية : ١٢٢

قال الله تعالى: "فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ" فقداستدل الإمام حماد بن سلمة بهذه الآية على الرحلة في طلب العلم.

يجدر بطالب العلم أن يجدَّ في الدراسة حسب الإمكان وأن يقسّم أوقات ليله ونهاره ويغتنم ما بقي من عمره حتى لا تضيع له لحظة من عمره النفيس، ودوام الحرص على الازدياد من العلم بملازمة الجد، وأن يواظب على وظائف الأوراد قراءة ومطالعة وحفظا وفكراً وتعليقاً، وبحثاً وتصنيفاً ولا يضيع شيئا من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة من الحاجات الضرورية كالأكل والشرب والنوم، أو الاستراحة لملل، أو أداء حق زوجة، أو زائر، أو تحصيل طعام وغيره، مما يتعذر معه الاشتغال، فإنّ المؤمن إذا استوى يوماه فهو من المغبونين.

وعليه أن يجتهد في الطلب فإنّه بقدر الكدّ تكتسب المعالي ومن طلب العلا فعليه سهر الليالي، ولا يظنّ أنه سيحصل العلم بمجرّد رغبته إليه بل عليه أن يسعى له. فقد قال الله تعالى وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى وأن يسافر إلى الأماكن البعيدة بتحمّل المشقّات اتباعا لقوله ﷺ "اطلبوا العلم ولو بالصين".

وقال الشافعي رحمه الله: "حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من العلم، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في إدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه".[٢٠]

وقال الربيع: "لم أر الشافعي آكلاً بنهار ولا نائماً بليل لاشتغاله بالتصنيف، ومع ذلك فلا يحمل نفسه من ذلك فوق طاقتها كيلا تسأم ويمل، فربما نفرت نفرة لا يمكنه تداركها، بل يكون أمره في ذلك قصداً، وكل إنسان أبصر بنفسه"[٢١].

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إنَّ أَحَدًا لَمْ يُولَدْ عالِمًا أيْ مِنْ بَطنِ أمِّهِ وَإنَّماَ

٢٠) آداب العلماء والمتعلمين للحسين ابن المنصور اليمني .
٢١) آداب العلماء والمتعلمين للحسين ابن المنصور اليمني.

الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ. أي أنّ جميع العلماء الكرام لم يولد أحد منهم عالما من بطن أمّه، وإنّما صاروا علماء باجتهادهم في طلب العلم واحتمالهم المشقة في تحصيله.

وهذا إمامنا الشافعي رحمه الله ما وصل إلى درجته التي نالها إلا بتحمل مشقات كثيرة لايعلمها إلا الله، وقد أصابه من الفقر والمصيبة ما يعجزعنه الواصفون ولكن لم يتزلزل، وثبت أمامها ثبوت الجبال الراسيات حتى نال إلى رتبة عالية وكان مصداق قوله ﷺ"عالم قريش يملأ طباق الأرض علما".

وهذا إمام المحدّثين صاحب الصحيح أعني البخاري رحمه الله قد قطع المسافات في طلب حديث واحد.

تقليل النوم:

فعلى طالب العلم تقليل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمان ساعات، وهو ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل منها فعل. قال ﷺ لرجل من أصحابه: يافلان، لا تكثر النّوم بالليل فإنّ كثرة النوم بالليل تدع صاحبه فقيرا يوم القيامة. فما نقول فيمن ينام بالنّهار أيضا ؟ نعوذ بالله من ذلك. ثمّ على طالب العلم أن لا ينام إلا إذا غلبه النوم، ولا يستجلب النوم بفرش ناعمة وبيئة ملائمة فإنّ ذلك من عادة أهل اللهو والطرب. ومما ينبغي التنبّه عليه أنّ المتعلّمين يجب عليهم ترك النوم وقت الصبح لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها وهو وقت قسمة الأرزاق فنومه فيه حرمان من الأرزاق ومع ذلك أنّه وقت مبارك ولعظم شرفه أقسم الله به في قرآنه المجيد فقال"والفجر وليال عشر" و دعا فيه نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلّم لأمّته فقال "اللهم بارك لأمّتي في بكورها"[٢٢] وكذا وقت العصر إلى غروب الشمس فلعلّ نومه فيه يكون سَبَبا لاختلاس عقله لقوله صلى الله عليه وسلّم "من نام بعد العصر فاختلس عقله، فلا يلومنّ إلاّ نفسه" ولكن له أن يريح نفسه وقلبه وذهنه

٢٢) رواه أبوداود والترمذي رحمهما الله.

وبصره إذا كلّ شيء من ذلك أو ضعف بتنزه وتفرج في المستنزهات بحيث يعود إلى حاله ولا يضيع عليه زمانه.

كثرة التواضع والورع في الحياة:

قال الله تعالى"وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"[٢٣] الحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ولا ينالها إلا بالتواضع. وهو خلق إنساني عظيم، يجعل الإنسان يعامل الآخرين بلطف، ويتطلّع لهم بنظرة احترام وتقدير ومساواة، دون تكبرأو تعالٍ، سواء كان يتفوق عليهم بالمال أوالعلم أوالجاه أوغيرها، وذلك ما نستنتجه من حديث النبي صلى الله عليه وسلّم "الناس كلّهم بني آدم، وآدم خلق من تراب" إذ يدلّ الحديث الشريف على أنّ أصل الإنسانية هو واحد، ولا يصح التعالي بالأنساب أو الألقاب على الآخرين فقد قال الله تعالى "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا"[٢٤]وقال تعالى أيضا "تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"[٢٥] فليكن المتعلم ذا تواضع لأنّ العلم كالماء يسيل إلى مكان منخفض فقط، ولقد أحسن من قال: والعلم حرب للمكان العالي. فيكون المتعلّم لمعلّمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ثم شرط عليه الصمت والتسليم فقال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما.

وكذلك يجب على طالب العلم أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله، ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به. ويلزمه التورع في الفتوى، والتأني في

---

٢٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٥.
٢٤) سورة الفرقان الآية ٦٣.
٢٥) سورة القصص ٨٣.

إطلاقها، ففي زماننا هذا نرى طلاب علم يستعجلون في الفتوى، مع أن الأسلاف رضي الله عنهم كانوا يتدافعون الفتوى، ويشفقون من الإقدام عليها، فما بال طلاب العلم اليوم يتناهبونها، ولا يعبؤون بخطورتها؟!

ومما ينبغي أن يعلم أنّه جاء رجل من العراق إلى مالك بن أنس رحمه الله فسأله عن أربعين مسألة، فأفتاه في ثلاث مسائل فقط - في إحدى الروايات - واعتذر عن سبع وثلاثين مسألة، فقال له السائل: نضرب إليك أكباد الإبل، ولا تعرف إلا ثلاث مسائل! فقال له الإمام: اركب راحلتك، وقل لمن أرسلك: إنني وجدت مالك بن أنس لا يعلم في العلم شيئا. وبهذا التواضع والتورع في الفتوى نال الإمام مالك رحمه الله المنزلة الرفيعة، والمكان المرموق بين العلماء. ومن هذه الواقعة نفهم أنّ طالب العلم عليه أن يلزم التواضع في جميع الحالات، وعليه أن يقنع من القوت بما تيسر وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما يستر مثله وإن كان خَلَقاً، فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم، ويجمع شمل القلب على مفترقات الآمال فتفجر فيه ينابيع الحكم. فإن العلم صناعة القلب وشغله، فمن لم يتفرغ لصناعته وشغله لم ينله. فالقلب له وجهة واحدة فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم. ومن لم يُغلِّبْ لذة إدراكه للعلم على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبداً.

القدوة الصالحة و الجرأة في الحق:

القدوة الصالحة هي مسألة كبرى بالنسبة إلى طالب العلم، فإن الناس ينظرون إلى طالب العلم نظرة خاصة، فعليه أن يجعل من نفسه مثالا رائعا حيث يقتدونه في أفعاله وأقواله، وألا يكون سببا في إضلال الناس، فلئن كانت المعصية في حق غيره واحدة، فهي في حقه عدة معاص، لأن الناس يتأسون به، وكم يسمع الناس من احتجاج العوام لاقتنائهم مثلا أجهزة الفساد كالفيديو وغيره بأن طالب العلم الفلاني يقتني في بيته هذا الجهاز، سواء كان ذلك حقا أو باطلا. فليتفطن طلاب العلم لذلك، فإن العلماء أوطلاب العلم هم ورثة الأنبياء فواجب أن تكون فيهم قدوة حسنة يتبعها ويقتدي بها عوام الناس ومن دونهم في العلم والمعرفة.

العمل بمقتضى العلم:

قال الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ"[٢٦]. والعمل بمقتضى العلم قضية كبرى، ومسألة جوهرية في حياة العلماء وطلاب العلم، فإن العمل هو المقصود الأعظم من العلم، وبدونه لا قيمة للعلم، ولا فائدة من ورائه. ومن هنا جاءت نصوص الكتاب والسنة تؤكد وجوب ربط العلم بالعمل، وتحذر من الفصل بينهما فقد قال تعالى في قرآنه المجيد "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ".

وأما الأحاديث فيها فكثيرة جدّا، وكفانا دليلا على عظمتها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول "إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة، رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها، فقال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار"[٢٧].

وقال عليه الصلاة والسلام "يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيقال: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقال: كنت آمركم بالمعروف ولا أفعله، وأنهاكم عن المنكر وآتيه"[٢٨].

---

٢٦) سورة الصف الآيات : ٢،٣.
٢٧) رواه البخاري في كتاب الرقاق .
٢٨) البخاري ٣٠٩٤ ومسلم ٢٩٨٩.

وعن زيد ابن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها "[٢٩]

وقال ﷺ: "مثل الذي يعلّم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة التي تضيء للناس وتحرق نفسها"[٣٠].

وأما من أقوال السلف: قال أبو هريرة رضي الله عنه: "مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله عز وجلّ".

وقال عمر بن الخطاب: "لا يغرركم من قرأ القرآن، ولكن انظروا من يعمل به".

وقال حبيب بن عبيد الرحبي: "تعلموا العلم، واعقلوه، وانتفعوا به، ولا تتعلموا لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم العمر أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه".

وقال الفضل بن عياض: "لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالماً".

وقال مالك بن دينار: "العالم الذي لا يعمل بعلمه بمنزلة الصفا إذا وقع عليه القطر انزلق عنه".

فعلى طالب العلم أن يعمل بعلمه الذي علمه فإنّ العمل هو ثمرة العلم وإنّما يكون العلم نافعا حينما يعمل به .

كتابةالعلم:

والكتابة هي من إحدى الوسائل الناجحة في تقييد العلم، فإنّ قوة الذاكرة والحافظة من الإنسان ربّما يعتريها النسيان فيضيع ما حفظه القلب وربّما لا يستطيع على إدراكه البتة، فتقييد العلم بالكتابة أمان من الضياع، وقصر لمسافة البحث عند

٢٩) رواه مسلم .
٣٠) رواه البزار وصححه الألباني.

الاحتياج، لا سيما في مسائل العلم التي تكون في غير مظانها، ولذا فاجعل لك مذكرة لتقييد الفوائد والفرائد والأبحاث المنثورة في غير مظانها، وإن استعملت غلاف الكتاب لتقييد ما فيه من ذلك، فحسن، ثم تنقل ما يجتمع لك بعدُ في مذكرة، مرتباً له على الموضوعات، مقيداً رأس المسألة، واسم الكتاب، ورقم الصفحة والمجلد، ثم اكتب على ما قيدته "نقل" حتى لا يختلط بما لم ينقل. وقد قال الشعبي رحمه الله : "إذا سمعت شيئا فاكتبه، ولو في الحائط".

وفي الكتابة فوائد كثيرة لا تنكرها ذو عقل سليم، فإنه لولم تكن لما نقل إلينا كثير من العلوم والفنون، فإن العلماء يموتون وإنما تركوا ورائهم تأليفات قيمة فكانت كتبهم مرشدة إلى الطريق السويّ نيابة عنهم. ونبيّنا محمد ﷺ كان يحرّض على كتابة شيء مفيد، "قَالَ هِلاَلُ بْنُ يَسَار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لأصْحَابِهِ شيئا مِنَ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ فَقُلْتُ يَارَسُولَ الله أَعِدْلِي مَاقُلْتَ لَهُمْ ؟ فَقَالَ لِي: هَلْ مَعَكَ مِحْبَرَةٌ ؟ فَقُلْتُ مَا مَعِي مِحْبَرَةٌ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ : يَاهِلاَلُ لاَتُفَارِقِ المِحْبَرَةَ فَإِنَّ الْخَيْرَفِيهَا وَفِي أَهْلِهَا إلى يَوْمِ القِيَامَة". فعلى طالب العلم أن يكتب ما تعلم منه ليستفيد عند النسيان خصوصا المسائل الغريبة النافرة عن الذهن في الكتاب.

القناعة بأدنى ملبوس وقوت:

وفي وصيّة لقمان لابنه "يَابُنَيَّ، الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ غَرِقَ فِيهَا نَاسٌ كَثِيرٌ فَاجْعَلْ سَفِينَتَكَ فِيهَا القَنَاعَةَ". فعلى المتعلّمين أن يقنعوا من القوت ومن اللباس بما تيسر، وإن كان موسرا، لقد صحّ عن الشافعي رحمه الله: "لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح"، وقال: "لا يدرك العلم إلا بالصبر على الذل، ومن آثر طلب العلم على الاحتراف فإن الله يعوضه ويأتيه بالرزق من حيث لا يحتسب".

فعن زياد بن حارث الصدائي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: "من طلب العلم تكفل الله برزقه"[٣١]. وقد قال العلماء إنّ من أعظم الأسباب المعينة على اكتساب العلم وفهمه وحفظه هو، أكل القدر اليسير من الحلال.

وقال إمامنا الشافعي رحمه الله: "ما شبعت منذ ست عشرة سنة"، وسبب ذلك، إن كثرة الأكل تورث كثرة الشرب، وكثرته جالبة للنوم، والنعاس، وكثرة الغفلة والبلادة، وفتور الحواس، وقصور الذهن، وكسل الجسم، وثقل البدن وكلّ هذا مع ما فيه من الكراهة الشرعية، والتعرض لكثيرمن الأسقام البدنية. والأحسن أن يكون مقدار الطعام من الطعام إذا كثر، ما ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم قال: "ما ملأ ابن آدم وعاء، شراً من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه"[٣٢]، فإن زاد على ما ذكر فربّما يعدّ من الإسراف. وقد قال الله تبارك وتعالى: "كلوا واشربوا ولا تسرفوا"، حيث قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة: "جمع الله الطبّ كلّه بهذه الكلمة".

اجتناب مايقلّل الفهم:

وعلى طالب العلم أن يجتنب الأطعمة التي تورث النسيان، وكذا عليه ترك كلّ شيء يؤدّي إلى قلّة الفهم وسوء الحفظ. وقد عدّ العلماء أمورا كثيرة تؤدّي إلى سرعة النسيان ككثرة أكل الباقلا، والتفاح الحامض، وشرب الخل، وكذلك استعمال ما يكثر البلغم المبعد للذهن، ككثرة الألبان والسمك ونحو ذلك، وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : "اِنَّ مِمَّا يَزِيدُ قُوَّةَ الْحِفْظِ السِّوَاكُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ نَظْرًا، وَأَكْلُ الخُبْزِ الْيَابِسِ عَلَى الرِّيقِ".

وَ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ "اِنَّ كَثْرَةَ النِّسْيَانِ مِنْ كَثْرَةِ الْبَلْغَمِ وَكَثْرَةَ الْبَلْغَمِ مِنْ كَثْرَةِ شُرْبِ الْمَاءِ وَكَثْرَةَ شُرْبِ الْمَاءِ مِنْ كَثْرَةِ الطَّعَامِ" ويجتنب ما يورث النسيان بالخاصة كأكل أثر

٣١) أخرجه الخطيب في الجامع.
٣٢) رواه الترمذي رحمه الله.

سؤرالفأر، وقراءة ألواح القبور، والدخول بين جملين مقطورين، وإلقاء القمّل الحيّ على الأرض بلا قصع، ونحو ذلك من المجربات عند الخواصّ.

وكذا يجب على طالب العلم آداب أخرى لو قمنا بذكر تفاصيلها لطال الكلام ولذا نشير إليها بمجرّد ذكرها دون شرح وتفصيل منها:

* يجب عليه أن لا يسأل أستاذه أسئلة تعنُّت وتعجيز، وأن يهذِّب أسئلته ويعرضها بشكل مقبول وبأسلوب مهذَّب.

* أن لا ينتقل من بحث قديم إلى بحث جديد إلاّ إذا بعد إتقان البحث القديم، وبعد استئذان أستاذه ومشورته بذلك.

* وعليه أن ينظر إلى أستاذه ومربيه نظرة إجلال واحترام وتقدير وأن يبجِّل أستاذه في حضوره وغيبته، ولا يخاطبه بتاء الخطاب وكافه ولا يناديه من بعيد، بل عليه أن يخاطبه بصفة الجمع .

* أن يسبق أستاذه في الحضور إلى مكان الدرس أو الحلقة أو الندوة وأن يجلس في حضرته بأدب، ويتعاهد تغطية قدميه وإرخاء ثيابه ولا يستند في حضرته إلى نحو جدار أو مخدة ولا يدبر إليه ظهره وغير ذلك مما لايستحسن في مجالس العلماء.

* وأن لا يأكل ما يفسد عليه ذوقه وفهمه أو يضر بصحته أو ينسيه بعض ما درس. وكان المسلمون الأوائل يوصون طلاّبهم بتناول بعض الأطعمة وشرب بعض الشراب الذي يعتقدون أنه يقوي الذهن والذاكرة مثل: أكل الزبيب بكثرة، وشرب العسل، واستعمال السِّواك.

* وأن يحافظ على أداء الصلوات المكتوبات في أول وقتهنّ في جماعة يشترك فيها المؤمنون والصالحون.

* أن يفكر دائما في عجائب خلق الله تعالى فإنّ الله سبحانه يقول للمؤمنين في محكم تنزيله في مواضع عدة "أفلا تتفكّرون" "أفلا تتدبّرون"، وطالب العلم أولى وأجدر به من غيره.

* وأن يظنّ أنّه قليل العلم وإن وصل إلى أعلى المعالي من العلم، فإنّ الله سبحانه وتعالى أمر نبيّنا محمدا ﷺ بقول ربّ زدني علما وهو الذي أوتي علم الأولين والآخرين.

* وأن يشكر الله في السرّ والعلانية على هذه النعمة الجسيمة التي لا تعدلها الأرض والسموات وما فيهما، وقد حرّمها على كثير من عباده.

* وأن يكثر السّواك وقراءة القرآن فإنّهما يُعينان على زيادة قوّته الحافظة والذاكرة.

* وأن يلازم الوضوء وقلّة الأكل وأن يرغب عن اللعاب والملاهي، فإنّ العلم لا يدخل إلى قلب غافل.

* وأن يسأل الله سبحانه أن يزيد من العلم النافع الذي هو نور في الحياة وفي الممات وأنيس ورفيق في القبروالحشر.

وذكر الإمام الغزالي رحمه الله بعض الشروط ينبغي أن يأخذ بها المتعلّمون وهي :
١)تقديم طهارة النفس على رذائل الأخلاق، إذ لا تصلح عبادة القلب بالعلم إلاّ بعد تطهيره عن خبائث الأخلاق.

٢) أن يقلّل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن.

٣) ألاّ يتكبرعلى العلم ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية.

٤) أن يحذر الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإنّ ذلك يدهش عقله، ويحيرذهنه، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع .

٥) ألاّ يدع طالب العلم فنّا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلاّ وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض.

٦) أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهمّ، فإنّ العمرإذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا، فالحزم أن يأخذ من كلّ شيء أحسنه.

٧) ألاّ يخوض في فنّ حتى يستوفي الفن الذي قبله فإنّ العلوم مرتبة ترتيبا ضروريّا وبعضها طريق إلى بعض.

٨) أن يعرف السبب الذي به يدرك الشرف في العلوم، فإنّ ثمرة علم الطب الحياة الدنيوية وثمرة الدين الحياة الأخروية، فيكون علم الدين أشرف.

٩) أن يكون قصد المتعلّم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضائل، وفي المال القرب من الله، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران، ولا ينبغي أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم التي هي فرض كفاية.

١٠) أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد، كما يؤثرالرفيع القريب على البعيد، والمهمّ على غيره[٣٣].

هذه هي بعض أهمّ مبادئ التعاليم الإسلامية الأصيلة التي وردت على لسان العلماء والمربين المسلمين الأوائل لأبنائهم من طلاب العلم في كل زمان ومكان، لتصلح من شأنهم وترفع من قدرهم وتسمو بمستواهم العقلي والخلقي والبدني والاجتماعي، وهي مشاعل تنير لهم طريق الهداية في حياتهم الدراسية، حتى إذا ما خرجوا إلى ميدان الحياة العامة كانوا رجالا عاملين مؤمنين مشبَّعين بروح التربية الإسلامية السمحة البيضاء التي تعصمهم من الزلل وتهديهم صراطاً مستقيما في حياتهم الدنيوية والأخروية.

٣٣) التربية في الإسلام للدكتور أحمد فؤاد الأهواني.

الفصل الأوَل:

العوامل المهمّة لتنشيط الطلاّب ودفعهم إلى التعلّم:

ومن طبيعة الإنسان أن يصيبه الكسل والفتور في بعض الأحيان ولو كان مجدّا متقنا مخلصا في عمله، وإذا كان هذا أمرالإنسان البالغ العاقل، فلا عجب في تكاسل الأطفال الصّغار الذين لم يبلغوا حدّ التكليف لا سيما في حالة التعلم. فينبغي للمعلّم أو المربّي أخذ بعض الوسائل المفيدة الناجحة لتنشيط الطلاّب ودفعهم إلى التعلّم والحفظ مع مراعاة سنّهم وطبيعتهم، ومن تلك العوامل المهمّة ما يأتي:

١)غرس محبة العلم في نفوس الطلاّب:

حين يغرس المدرّس في نفوس الطلاب حبّ العلم وفضائله، وفضل أهله وحملته، فإنّهم سيقبلون على العلم، وتحصيله بالبحث والمذاكرة وغيرها من أنواع طلب العلوم. والآيات والأحاديث التي وردت في فضائل العلم لا تكاد تحصى، على المعلّم مطالعة هذه الكتب المشتملة على فضيلة العلم وتلقينها لهم أثناء الدرس بحسب الحاجة إليها بغير إفراط وتفريط في أوقات مناسبة.

ورد في الحديث الشريف عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول "من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[٣٤]. وعندما يستمع المتعلّم إلى فضيلة العلم وفضيلة حملة العلم يشتاق أن يكون واحدا من أهله فيعمل ويجتهد لذلك وهذا يدفعه إلى التعلّم ويحضّه عليه.

٣٤) رواه أبو داود، والترمذي رحمهما الله.

ويستعين المدرّس ببعض الكتب المفيدة الجيّدة المؤلّفة في هذا الجانب من كتب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي- خاصة الباب الأوّل من الجزء الأول من هذا الكتاب، و"العلم فضله وشرفه"لابن قيّم الجوزية، رحمهما الله ففيهما الكفاية إن شاء الله تعالى.

٢)المدح أو التعزيز:

للمدح أثر فعّال في نفوس الأطفال، لأنه يحرّك الشعور النائم ويحيي الأحاسيس الميتة، ويقع في النفوس موقعاً حسناً جميلا، وهو مثير للمشاعر كما أنه محبب إلى القلوب والأذهان، وهو يدفع الشخص الممدوح إلى العمل بجدية ونشاط وارتياح في نفس الوقت. والحديث الذي يمدح فيه النبيّ ﷺ ابن عمر رضي الله عنه خير مثال لذلك، وذلك :

"عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : كان الرجل في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصّها على رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصّها على النّبي صلى الله عليه وسلّم. قال وكنت غلاماً شابّاً عزباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيهما ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، قال فلقيهما ملك فقال لي : لم ترع، فقصصتها على حفصة، فقصّتها على رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم، فقال النبي ﷺ "نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل"[٣٥] قال سالم : فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلاّ قليلا.

وهاهو المعلّم الأعظم محمّد ﷺ يمدح عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وينبّهه أمرا غفل عنه بأسلوب رائع بديع محبّب إلى نفسه، فبعثه ذلك إلى العمل على أتم وجه وأكمل صورة وهو راغب مقبل مثابر نشيط .

٣٥) رواه البخاري ومسلم رحمهما الله.

وكذلك المدح في زمنه المناسب، ووقته المناسب، وفي المجلس المناسب، للشخص المناسب، يبعث النشاط والمروّة في النفوس، كما يزيد الحيوية والطمأنينة في القلوب.

لكن ينبغي أن يكون المدح بصدق، وإخلاص، من غير مراء، ولا فخر، وأن يكون موجَّهاً إلى هدف مقصود معيّن لا لمجرد المدح والثّناء فحسب.

٣) المنافسة:

ومما لا يخفى على أحد أن للمنافسة يد طولى في تنمية قدرات الطالب ومهاراته، فإنّها تحرك طاقات كامنة داخل الشخص لا يعرفها في الأوقات العادية، وتبرز تلك الطاقات لديه عندما يوضع في منافسة حامية مع شخص آخر.

والمعلّم الفطن يفهم ضرورة زرع التنافس بين الطلاب ويعمل ما في وسعه لذلك ليكون تعليمه ناجحا، ثم مكافأة الفائز وتقديره والثناء عليه -لا شكّ- يدفعه لاستخراج الطاقات الكامنة في نفسه، ومن ثم يتحقق المطلوب ويشعر باللذة والسعادة والطرب.

والمنافسة تنشط النفوس الفاترة وترفع مستوى الهمم، وتثير النشاط، وتنمي المواهب والقدرات، كما أنها تغرس في الأطفال روح الجماعة والابتعاد عن الفردية، وتدربهم على فهم الحياة، وأنها بين إقبال وإدبار حسب ما يبذلون لها من جهد.

والمنافسة أسلوب مهمّ لترغيب الناس في الخيرات وقد استخدمه النبيّ صلى الله عليه وسلّم بين أصحابه الطيّبين الطاهرين. ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ "إن من شجر البوادي شجرة لا يسقط ورقها، وإنها المسلم فحدثوني ما هي؟" فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبدالله: وقع في نفسي أنها النخلة .. ثم حدثنا رسول الله ﷺ قال "هي النخلة". فهذا الأسلوب يثير انتباه الطفل ويجعله يفكر مع الغير وينافسهم لمعرفة الجواب الصحيح.

فاستغلال هذا الأسلوب بين الطلاب في الحلقات يؤدي إلى بث روح النشاط بينهم ويبعد عنهم الفتور والكسل، لكن ينبغي استخدامه بشكل صحيح مناسب للوقت

والمكان والمجلس لتكون النتائج مرجوة منه، وإلاّ يؤدي التنافس في بعض الأحيان إلى الشحناء والحسد والضغن وغيرها من المهلكات، فعلى المعلّم أن يكون على حذر تامّ في استخدامه موافقا لطبائع الطلاب ومقتضى الحال.

٤) حل المشاكل :

وفي بعض الأحيان نرى بعض الطلاّب النشطاء قد اعتراهم فترات كسل وإعراض، وقد يكون ذلك لمشكلة نزلت بهم، ولا بد من حل ما يعترضونه من مشاكل للعودة بهم إلى نشاطهم المعهود.

ولن يعود النشاط أبدا ما دامت العوائق موجودة، والمانع قائماً مستمرا، ربّما يكون المانع مشكلة نفسية أو اجتماعية أو أسرية، وهنا تبرز مهارة المعلّم في التوصل إلى المشكلات وإيجاد الحلول لها بالتعاون مع القادرين على الوصول إلى جوهر المشكلة وحلّها وتيسيرها من أسرة وأقارب وموجهين ومتخصصين وغيرهم .

وقد لا يعلم الطالب ماهية مشكلته وحقيقتها، إلا أنه يشعر بوجودها فقط، وهذا أمر يحتاج إلى فهم مسبق من المعلّم لنفسيات تلامذته، وبراعته في التعامل مع كلّ بما يلائمه، وفي الحقيقة فإن التغلب على العوائق والموانع التي تعترض حياة الطالب يحقق له نشاطاً مستمراً بإذن الله تبارك وتعالى.

ومن أول ما يجدر بالمعلّم معرفته في ذلك: معرفة المراحل التي يمرّ بها الطالب بين طفولة ومراهقة، كما عليه معرفة طبيعة كل مرحلة من هذه المراحل وخصائصها، وعليه أن يخاطب كلاً بما يناسبه، وأن يراعي الفروق الفردية في حل المشاكل. وبعض التلاميذ لعلّهم مصابون بضرٍّ في أسماعهم أو أبصارهم فلا يستطيعون أن يسمعوا ما يقول الأستاذ في الصف بصوت خافض، ولا أن يروا ما يكتب الأستاذ على السبورة بكتابة صغيرة، فعلى المعلّم مراعاتهم ومعرفة أحوالهم. ومن الواضح أن أكثر المشاكل للمتعلّمين لا يُبدونه إلاّ إذا خاطبهم الأستاذ مواجهة ويلحّ عليهم بالأسئلة.

٥) الاستجابة للميول وتحقيق الرغبات :

وممّا لا يخفى على أحد أن في الاستجابة للميول وتحقيق رغبات الطلاّب اطمينانا لقلوبهم وإدامة سرور القلب وطلاقة الوجه بزوال القلق من نفوسهم. فبعض الطلاّب قد يبذلون مجهوداً كبيراً، ويحققون شيئا عظيماً في نظرهم، ويشعرون بأنهم قدموا لأسرتهم ولمعلمهم شيئا قيماً، فينتظرون أن يبادلوهم نفس الشيء بالاستجابة لميولهم وتحقيق رغباتهم. وهذه لا شكّ تفيدهم في تشجيعهم وتنشيطهم وتقديرهم، خاصة مع الصغار فلا بد من إرضائهم وتنفيذ مطالبهم، وحين تتم الاستجابة لهم تنشرح نفوسهم ويزداد نشاطهم وينطلقون من جديد ويواصلون تفوقهم وتألقهم، وقد يكون منعهم مما يريدون - خاصة بعد أدائهم جهداً كبيراً - قد يكون ذلك إحباطاً معنوياً كبيراً وإعاقة لهم عن مواصلة سيرهم .

ومما ينبغي أن يذكر، أنه لا بد أن تكون الاستجابة لميولهم بحدود، فلا تكون في ضررعلى الطلاب كالذهاب إلى الأماكن التي يخلع فيها الحياء، أو ترفع أصوات المنكرات، أو تنتهك فيه المحرمات فيمنع، وحينئذ لا بد أن يكون المنع معللاً مع إيجاد بديل ملائم مناسب.

٦) النظرة إليهم بنظرة واثقة :

وهنا جدير بالذكر، أنّه لايدري كثير من الناس أن الطالب واحد من رجال الأمة، إلا أنه مستتر بثياب الصبا، فلو كشف لنا عنه وهو كامن تحتها لرأيناه واقفاً في مصاف الرجال القوامين المتقدمين، ولكن جرت سنة الله أن لا يتفتق زوال تلك الأستار إلا بالتربية الحسنة شيئا فشيئا، وحين ينظر المعلم إلى طلابه نظرة واثقة بأنهم سيحققون كذا وكذا، وسيحفظون كذا وكذا ، يشعرون بأنهم قادرون على الحفظ وتنبعث الرغبة في نفوسهم وينشطون لتحقيقها.

ومن الخطر العظيم أن ينظر المدرّس إلى تلامذته بعين الحقارة والذلّة، وربّما يكون قوله لهم وقت الغضب "إنّكم لا تليق بكم هذه المهنة، واطلبوا عملا غير هذا" سببا

لتركهم التعلّم تماما، فعلى المعلّم أن ينظر إليهم بنظرة واثقة، وأن يعرض عن كثير من الهفوات التي تكون منهم حالة التعلّم.

٧) تنمية ثقة الطلاّب بنفوسهم :

الطلاب الواثقون من نفوسهم يقومون على العمل بجدّ لتوقعهم أن سينجحون بخلاف من يفقدون الثقة بنفوسهم، وهم يحملون في طيات نفوسهم الفشل قبل العمل فلا يبذلون أيّ مجهود لأنهم يظنون أنهم لن يقدروا على التفوق وإن أتعبوا أنفسهم بالجدّ والجهد.

وتنمية ثقة الطلاب بنفسهم من أهم عوامل التنشيط وحضّهم على التعلّم، ويمكن ذلك بما يلي :-

أ) تنمية ثقتهم بالله سبحانه وتعالى: وذلك بأن يلقّنهم أنه تعالى يعينهم إذا استعانوا به، ويقبلهم إذا قبلوا عليه، وأن كل جهد يبذلونه يجزيهم عليه ولا يضيع أجر المحسنين. ويلزمهم التمسك بكتاب الله وسنة حبيبه ﷺ وتذكّر مراقبة الله دوماً، ومراعاة حدوده، والإقبال على الآخرة، والتجافي عن دار الغرور كل ذلك ينمي الثقة بالله عز وجلّ.

ب) تنمية ثقتهم بجدوى ما يتعلمون، فالذي لا يعلم قيمة ما يسعى إليه وفائدة ما يتعلّم، لا يبذل في سبيله أي جدّ وجهد، وذلك ممكن ببيان فضل القرآن وشرف حملته وفضل تعلم العلوم الشرعيّة وغيرها من العلوم التي يتعلّمها.

ج) بيان الجوانب التي ينجح فيها الطلاّب بسهولة ويتميزون فيها على أقرانهم مع إرشادات قيّمة مناسبة للأحوال، فإنّ ذلك -لا شكّ- ينمي ثقة الطلاّب بنفسهم.

د) قياس نجاح الطلاّب بقدراتهم، وليس بقدرات زملائهم وأصدقائهم، فمن لا يقدر حفظ أكثر من صفحة في يوم واحد يقال له : أنت ناجح لأنك أتيت بكل ما تقدر عليه، ولا يقال: أنت فاشل لأنّ فلاناً حفظ صفحتين أو ثلاث صفحات.

هـ) أخذهم إلى مجالس الأساتذة الكبار وحلقاتهم ومخالطتهم لهم مع التوجيه المستمر، ومشاركتهم في بعض الأنشطة الإذاعية ونحوها، فحينئذ ينشط الطلاّب ويزيدهم ذلك معرفة وخبرة ومهارة، ويقبلون على القرآن واثقين من معونة الله لهم.

و)- توليد الحماسة :

توليد الحماسة في نفوس الإنسان لهدف ما في حياته يعينه كثيراً على عدم نسيان العناصر المرتبطة بهذا الموقف، وإذا كانت الخطب الحماسية لها دور كبير في نصر الجيوش أو هزيمتها، فكيف بالطالب الصغير، وهاهو نبيّنا محمّد ﷺ يحمس أصحابه فيقول "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض" فيقوم عمير بن الحمام إلى الجهاد مسرعاً حتى إنه لا يجد وقتا متسعاً لأكل تمراته التي في يده.

٨) بعث الفرح والسرور في نفوس الطلاّب :

ومما لا شكّ فيه أنّ إدخال الفرح والسرور في نفوس الطلاب يؤثّرفيهم تأثيراً كبيراً، وأكثرالأعمال التي يقومون بها وحدهم، يكون هدفها إدخال السرور إلى نفوسهم، فإذا كان المدرّس ذايقظة وبصيرة ووجّههم نحو أهدافهم فإنه يثير نشاط الطلاّب ويورث فيهم الحيوية والرغبة، ويكون الطلاّب على أهبة الاستعداد لتلقي الأوامر وتنفيذ ما يطلبه منهم. وقد كان الرسول ﷺ يمازح أصحابه، ويقبل الصغار، ويمسح رؤوسهم، ويطعمهم، ويحملهم، ويأكل معهم، ويناديهم بكُناهم التي يحبّونها.

وقد ظهر أمامنا في العصرالراهن هذا الاتجاه فيما يسمى (التعليم بالترفيه)، وسلكت الدول الغربية هذا المسلك في تعليمها للأطفال، ولا حاجة لنا أن نسلك هذا المسلك وننقض ما نحن فيه بل يكفينا أن نبعث الفرح والسرور في نفوس الطلاّب حتى يسارعوا إلى الطاعة والتزام ما يطلبون منهم.

٩) القصص:

القصة من أهمّ المنشطات التي تبعد السآمة والملل وتغرس القيم في نفوس الرجال عامة وفي الصغار خاصّة، وتُعدّ من مبادئ التربية الإسلامية وقد استخدمها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وحين يشعر المعلّم بملل طلابه وعدم موافقتهم له فإن بعض القصص المختارة المناسبة - لا شكّ- تعيد إليهم نشاطهم وحيويتهم التي كانت فيهم .

فإذا كانت القصة التي تلقى إليهم جذابة غريبة لم يسمعوها قبل، فإنّهم يتأثرون بها سلوكياً، وتُغيّر القصّة في أخلاقهم ومعاملاتهم تغييرا إيجابيّاً.

والقرآن الكريم والسنة النبويّة مليئان بالقصص الجميلة المؤثّرة، التي تربى عليها الجيل الأول ومن بعدهم، وينبغي للمعلّم أن يلحظ عند اختيار القصص للطلّاب أن تكون القصة مشوقة للطلاّب، مناسبة لعمرهم، مصوغة بالقالب الذي ينفذ إلى حسّهم بسهولة، دافعة إلى الخير والصلاح والقيم الدينيّة.

١٠) التنويع في أساليب التعليم :

التنويع في أساليب التعليم يدفع الملل ويذهب الكسل والسآمة، ويجدّد النشاط والحيويّة، فالأسلوب الواحد المستمرّ للتعلّيم في وقت كثير -لا غرو- يملّه جميع الطلبة، فعلى المدرّس أن يأتي أثناء الدرس بالأساليب المتنوعة لتقريب الفكرة للدارسين وليكون مضمون الدرس أدعى للقبول، وأوقع للقلب.

ونرى أن القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهّرة مشتملان على الأساليب المتنوعة لتقريب الفكرة للمخاطبين. وإذا نظرنا في تحريم الزنا من القرآن الكريم فإننا نجده قد سلك مسالك عدة في ذلك، فنهى عنه صريحاً وقال: "ولا تقربوا الزنا"، وفي مكان آخر أثنى على من لا يزنون وقال "والذين لا يدعون مع الله إله آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون". وفي مكان آخر نهى عنه بالتشنيع على

مرتكبه وقال"الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة" أي أنه إنما يزني بزانية مثله أو مشركة.

وذكر في قصة يوسف التي هي أحسن القصص شرف العفة وفضلها في أسلوب رائع، وكل ذلك من شأنه أن يقرر الفكرة في ذهن المخاطب ويثبتها في قلبه.

وكذلك الطلاب ينبغي أن تنوع أساليب التعليم لهم فمرّة بالإلقاء، ومرّة بالبحث، ومرّة بالمناقشة وغيرها.

١١) المحاورة في العلم :

فمن ميزات هذا الأسلوب أن يشترك الطالب في الدرس ويكون جزءاً لا يتجزأ منه، ويكون المعلّم هو الذي يشارك الطالب في الإجابة.

وقد كان النبي ﷺ يستخدم هذا الأسلوب مع أصحابه في أحيان كثيرة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء. قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"[٣٦]. وهذا الأسلوب لا شكّ يثير انتباه المخاطب، ويشوّق نفسه إلى الجواب، ويرسخ العلم في ذهنه، ويحضّه على إعمال الفكر، ومن اليقين أن الطالب حين يكون مجرد مستمع فإن ذلك سيؤدي إلى الملل والإعراض، أما إن شارك في المحاورة فسيشعر بالحيوية والنشاط.

٣٦) رواه البخاري ومسلم رحمهما الله.

الفصل الثاني

تقسيم العلم إلى ماديّ ودينيّ

فمن العلماء الكرام من قسّموا العلوم باعتبار مضمونها إلى أقسام عديدة منها فرض عين وفرض كفاية، ومنها علم الموهب وعلم المكتسب، ومنها العلم الشرعيّ وغير الشرعيّ كما قسّمها بعضهم إلى ماديّ ودينيّ، والحقّ أنّ العلم الذي أشار إليه القرآن يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء، وتزول به غشاوة الجهل والشك عن عقل الإنسان، سواء أكان موضوعه الإنسان، أم موضوعه الوجود والغيب، وسواء أكانت وسيلة معرفته الحس والتجربة، أم وسيلته العقل والبرهان، أم وسيلته الوحي والنبوة. ولاحاجة إلى تفريق العلوم وتقسيمها إلى دينية ومادّيّة كما قسّمها بعض العلماء المتدينين في عصرنا هذا، بل كل علم يكون تعلمه ممدوحا بصدق الإخلاص وحسن النية في تعلمه كما يكون مذموما أيضا بسوء الظن وسوء النية فيه. فالمدار فيه تحسين النية وصدق الإخلاص كما قال ﷺ "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى". فليس صحيحا ما شاع عند الغربيين ومن دار في فلكهم أن العلم مقصور على ما قام على الملاحظة والتجربة، وليس صحيحا أيضا ما يتصوره بعض المسلمين المتدينين أو يحسبونه أن العلم في القرآن مقصور على العلم الديني ولا شئ غيره.

وأنّ أكثرعلمائنا الكبار من المفسرين والمحدثين والشرّاح وغيرهم كانوا متبحرين في جميع أنواع العلوم من علوم الطب والهندسة والصناعة وغيرها ولم يفرّقوا من علومهم ماكان منها مادّيا وما كان منها دينيّا بل نظروا إليها بعين واحد غير أنهم فضّلوا بعضها على بعض لشدة الحاجة إليه في أمر دينهم ودنياهم، ولا غرو في هذا التفضيل فإنّ الله تبارك وتعالى أيضا فضّل بعض رسله على بعض كما في قوله تعالى "تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض". ومن هنا ذهب الإمام أبو حامد الغزالي وغيره من علماء الأمة، إلى أن كل علم به قوام الدين أو الدنيا، فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية على الأمة مثل الطب والهندسة وغيرهما. فإذا قام في الأمة عدد

كاف يسدّ حاجتها، فقد سقط الإثم والحرج عن سائر الأمة، وإن لم يقم هذا العدد الكافي في كل اختصاص تحتاج إليه، فالأمة كلها آثمة، لتضييعها هذه الفريضة الجماعية، الواجبة عليها بالتضامن على تفاوت في مستوى المسؤولية، فمسؤلية الجاهل ليست كمسؤلية العالم، ومسؤلية ذوي الشأن وأولي الأمر، ليست كمسؤلية غيرهم من المغمورين، بل ذهب الغزالي رحمه الله وغيره إلى أن تعلم أصول الصناعات المختلفة فرض على الأمة، من الحدادة والصناعة والنجارة والنسيج والخياطة... وغيرها من كل ما لا يستغنى عنه المجتمع المدني.

وهذه اطّلاع إلى معرفة ما قد يلتبس على بعض الباحثين في هذا الميدان، ولو بحثنا في كلمة "العلم "التي استخدمت في القرآن الكريم نصل إلى هذه الحقيقة بسهولة.

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة أثنت على العلم وأهله، من حيث هو "علم" أي معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء، دون النظر إلى كونه علما دينيا أو دنيويا. مثل قوله تعالى: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون[٣٧] فهنا لم يذكرالقرآن مفعول (يعلمون). أي لم يقل: الذين يعلمون علم الدين أو الشريعة أو الطبيعة أو غيرها. بل نزل الفعل المتعدي وهو: يعلم منزلة الفعل اللازم، فكأن المعنى: هل يستوي العالم والجاهل؟ والاستفهام إنكاري، على معنى أنهما لايستويان.

ومثل ذلك قوله تعالى " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم "[٣٨]. فالمفهوم من هذه الآية : أن أولي العلم الذين عطفهم الله تعالى على الملائكة في الشهادة لله بالوحدانية، هم الذين استنارت بصائرهم بالعلم والمعرفة، سواء كان علمهم دينيا أم طبيعيا، وكم رأينا في علماء الكون من شهد لله تعالى بالوحدانية والتفرد بالقدرة والجلال والكمال. كما في كتاب. ا. كريسي موديسون ـ رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ـ الذي ترجم إلى العربية بعنوان (العلم

٣٧) سورة الزمر، رقم الآية:٩
٣٨) سورة آل عمران رقم الآية : ١٨

يدعو إلى الإيمان). ومثله كتاب (الله ينجلي في عصر العلم) بأقلام ثلاثين عالما متخصصا في العلوم الكونية أو الإنسانية.

ولكن من العجب، أن بعض علماء الدين في العصرالراهن قد جنحوا إلى هذا الرأي الغريب، وذهبوا إلى أن كل النصوص التى وردت في آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم، في فضل العلم والعلماء، إنما يقصد بها العلم الديني وحده، وعلماء الدين دون غيرهم. وقد يكون هذا صحيحا في قليل من النصوص الواردة في الأصلين العظيمين في الإسلام: القرآن والسنة، ولكن أغلب نصوصهما وردت عامة ومطلقة، تشمل كل علم ديني أو دنيوي، وبعضها لايمكن أن يفهم منه إلا أنه العلم الدنيوي: العلم بالكون والحياة والإنسان، وما يجري عليها من سنن.

نموذجا :

تعليم آدم عليه السلام الأسماء كلّها :

فأوّلا يُبدأ بالإنسان الأوّل، أبينا أبي البشر آدم عليه السلام، الذي قصّ علينا القرآن قصته في أكثر من سورة، ومنها سورة البقرة التي انفردت بهذا الموقف العجيب، وهو مشاورة الله عزوجلّ لملائكته في استخلاف آدم في الأرض وإذ قال ربك للملائكة "إني جاعل في الأرض خليفة: قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لاتعلمون"[٣٩].

وأراد الله تعالى أن يظهر للملائكة فضل آدم وما خصّه الله به من قدرات ومواهب ترشحه للخلافة في الأرض، فعقد ما يشبه - المسابقة - أو -الامتحان- بينه وبينهم، فظهر تفوق آدم على الملائكة في العلم، قال تعالى "وعلم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم

٣٩) سورة البقرة، رقم الآية :٣٠

بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"[٤٠].

وإذا فكّرالناس أو بحثوا في أيّ نوع من العلم كان عند آدم؟ أهو علم دينيّ أم علم دنيويّ؟ يمكنهم أن يصلوا إلى أنّه لا يمكن أن يكون علما دينيا، لأن آدم لم يكن قد أنزل عليه وحي، حتى يتكون من ورائه علم ديني، إنما هو علم بأسماء الأشياء التي أودعها الله في الأرض، والتي سيحتاج آدم إلى التعامل معها، والعلم بأسمائها والله أعلم. يعني العلم بخصائصها وفوائدها، وما يتصل بذلك من مهماتها في الحياة. وهذا بالقطع ليس علما دينيا ولعله لو كان علما دينيّا، لكان الملائكة أولى بالعلم به من آدم، لأن الملائكة هم الذين ينزلون بالوحي على رسل الله عليهم ألف ألف سلام.

علم يوسف عليه السلام بتأويل الأحاديث :

هو تأويل الأحاديث، ويعني بها المنامات، هو كذلك ليس بعلم دينيّ.

فقد قال يعقوب لابنه يوسف: "وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب"[٤١].

وقال تعالى بعد أن ذكر أن الذي اشتراه من مصر ـ وهو العزيز ـ قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ـ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث"[٤٢].

وقال يوسف بعد أن جمع الله شمله بأبيه وإخوته ودخلوا مصر بمشيئة الله آمنين "ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين" [٤٣].

---

٤٠) سورة البقرة رقم الآية : ٣١-٣٣
٤١) سورة يوسف، رقم الآية :٦
٤٢) سورة يوسف، رقم الآية:٢١
٤٣) سورة يوسف، رقم الآية: ١٠١

ومن البيّن أن علم تأويل الأحاديث الذي علمه الله ليوسف، ليس علما دينيا، بل هو علم يقوم على الفطنة والفراسة والحدس، فهو أقرب إلى علوم الدنيا منه إلى علوم الدين. ولذا عبر القرآن عنه بالظن في قوله عن أحد السجينين اللذين دخلا معه السجن، وأوّل رؤياه بأنه سينجو ويخرج من السجن، ويسقي سيده خمرا، كما كان يفعل، قال تعالى: وقال للذي ظن أنه ناج منهما:"اذكرني عند ربك"[٤٤]، وقال تعالى في قصة يوسف:"ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزي المحسنين"[٤٥] وهذا العلم آتاه الله ليوسف مع الحكم ـ أي الحكمة ـ ليس هو علم النبوة، فلم يكن قد أوتيها بعد، ولا علم الدين، فلم يكن في مصر في ذلك الوقت علم للدين يحصله أو يطلبه. إنما هو المعرفة البصيرة بالأمور، والاعتماد على العقل في الاستنتاج واختيار البدائل ونحوها. وهذا العلم هو الذي اعتبره يوسف عليه السلام مرشحا أساسيا له لمنصب الولاية على خزائن أرض مصر، حين قال له ملكها: إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم[٤٦].

فذكر يوسف عليه السلام سببين يؤهلانه للمنصب، وهما الحفظ والعلم. والمراد بالحفظ: الأمانة التى تجعله يحفظ ما ائتمن عليه من أموال وأعمال. والمراد بالعلم: المعرفة والخبرة بما يحتاج إليه هذا المنصب المالي الاقتصادي الإداري من خبرة بالأمورالمالية والاقتصاد والإدارة والتخطيط، وخصوصا في زمن الأزمة الاقتصادية الكبيرة التى تتوقعها مصر بعد سبع سنوات، وكيف يدخر من سنوات الخصب لسنوات القحط. ولايمكن أن يراد من صفة (عليم) التي ذكرها يوسف أنها تتعلق بعلم الدين، إذ لا دخل له في الترشيح للولاية على خزائن الأرض.

---

٤٤) سورة يوسف، رقم الآية :٤٢
٤٥) سورة يوسف، رقم الآية :٢٢.
٤٦) سورة يوسف، رقم الآية:٥٥.

علم داود وسليمان عليهما السلام :

ومما ذكره القرآن في شأن العلم: ما آتاه الله داود وسليمان عليهما السلام، فقد قال تعالى: "ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين"[٤٧].

فإذا نظرنا في أيّ علم آتاه الله داود وابنه سليمان عليهما السلام ؟ هل هو العلم الديني المحض؟ أو هو علم آخر؟ تبيّن لنا الآيات التالية طبيعة هذا العلم، كما قال تعالى: "وورث سليمان داود وقال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين"[٤٨]. بين سليمان عليه السلام أن العلم الذي فضل به على كثير من عباد الله المؤمنين، هوعلم منطق الطير، أي لغة الطير والحشرات، وقد ذكر لنا القرآن نموذجا منها في القصة حيث قال: "وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون. فتبسم ضاحكا من قولها وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين[٤٩].

وكذلك ما ذكره القرآن عن قصته مع الهدهد، وكيف أنبأه بقصة سبأ وملكتهم ... فهذا هو العلم الذي علّمه الله سليمان، ولم يكن علم الدين.

علم طالوت :

ومما قاله القرآن الكريم عن العلم: ما آتاه الله طالوت، الذي ذكر القرآن قصته في سورة البقرة، فقد قال تعالى في قصّة الملأ من بني إسرائيل الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، وكتب عليهم القتال ليحرروا أرضهم. وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا، قالوا: أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت

٤٧) سورة النمل، رقم الآية: ١٥.
٤٨) سورة النمل، رقم الآية :١٦
٤٩) النمل: ١٧- ١٩.

سعة من المال؟ قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم"[٥٠]. ولو بحثنا في نوع العلم الذي زاد الله طالوت بسطة فيه نجد أنّه لا يمكن أن يكون علم الدين، لأن علم الدين عند نبيهم الذي قال لهم:"إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا، ولكن العلم هنا يحدده السياق والمقام، وهوالعلم بشؤون الحرب والفنون العسكرية، وإدارة المعارك، ونحوها مما تتطلبه القيادة الحربية.

وبهذا يتضح لنا تمام الوضوح أن "العلم"حينما يذكر في القرآن ليس هو العلم الديني وحده، كما يتصور كثير من أهل العلم الشرعي. ومما يدل على بطلان هذا التصور: استخدام لفظة "العلم" ومشتقاتها في غير العلم الديني كما تدل على ذلك آيات القرآن.

ننظرإلى قوله تعالى "وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون"[٥١].

فالعلم الذي وصف الله به هؤلاء القوم الذين فصل لهم الآيات والذي جاء ذكره بعد قوله: وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها... لايمكن إلا أن يكون هو العلم الكوني، الذي يدخل فيه علم الفلك وما يتعلق به.

ومثل ذلك قوله تعالى: "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين"[٥٢].

والمراد بالعلم هنا: هو الذي به يتعرف على آيات الله في الكون، و سر اختلاف الألسنة والألوان، فهو يشمل علوم الكون، وعلوم الإنسان. واختلاف الألسنة والألوان قد يراد به اختلاف الأمم والشعوب في لغتها وألوانها بعضها عن بعض، وهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وقد يراد به اختلاف الأفراد في أصواتهم حتى إن لكل فرد منهم تميزا في صوته يجعل له "بصمة" خاصة به لايشاركه فيها غيره.

---

٥٠) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧
٥١) سورة الأنعام : الآية :٩٧
٥٢) سورة الروم:الآية : ٢٢

ومثله الاختلاف في الصورة فكل واحد له صورته المستقلة المتميزة، مهما يكن شبهه بغيره.

ومثل ذلك قوله تعالى: "وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون"[٥٣]. وفي القرآن بضعة وأربعون مثلا. وكان بعض السلف يبكي على نفسه إذا مرّ بمثل من القرآن ولم يفهم مغزاه، ويقول: قال تعالى: وما يعقلها إلا العالمون فأنا لست من العالمين. فالعالمون هنا هم الذين يعقلون الحكمة من وراء ضرب الأمثال للناس، فهم الذين يغوصون في الأعماق ولايقفون عند السطوح.

ويقول تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنّما يخشى الله من عباده العلماء"[٥٤]. فالعلماء هنا كما يبدو من السياق ليسوا هم علماء الدين، وفقهاء الشريعة، على فضلهم ومكانتهم، وإنما هم الذين يعرفون آيات الله، ويكتشفون سنته في خلقه، فيما ذكر من السماء، والنبات والجبال، والناس، والدواب، والأنعام، أي الذين يعرفون عظمة الله من خلال معرفتهم بعلوم الإنسان، وعلوم الحياة من نبات وحيوان، ومن خلال هذه المعرفة الحقيقية يخشون الله، إذ لايخشى الله ولايخاف مقامه حقا إلا من عرفه سبحانه.

وقال تعالى:"هوالذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون"[٥٥]. فتفصيل الآيات هنا إنما ينتفع به الذين يعلمون أسرار الله في الظواهرالكونية من جعل الشمس ضياء فيها النور والحرارة، والقمر نورا لأنه يستمد نوره من الشمس، ومن تقدير القمر منازل لمعرفة عدد السنين والحساب.

---

٥٣) سورة العنكبوت:الآية ٤٣
٥٤) سورة الفاطر: رقم الآيات : ٢٧، ٢٨.
٥٥) سورة يونس : الآية :٥

وقال تعالى في قصة الرهط التسعة من ثمود: "ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون"[٥٦].

فالذين يعلمون هنا هم الذين يعرفون سنن الله تبارك وتعالى في التعامل مع المكذبين والظالمين، وأن مكره تعالى أعظم من مكرهم، وكيده أقوى من كيدهم وأنه يمهل ولايهمل، وأنه يأخذهم وهم لايشعرون، وما ربك بغافل عما يعملون.

وفي كثير من الآيات يأتي العلم فيها بمعني المعرفة الواعية، والإدراك الراشد للأمور، فهو ضد الجهل والغباء بصفة عامة، لابمعنى تحصيل علم معين من علوم الدين أو الدنيا، وهذا في الحقيقة أكثر ما جاء في القرآن بصيغة "يعلمون" أو تعلمون" مثبتة أو منفية.

مثلا: قوله تعالى: "قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون"[٥٧].

فالذين يعلمون تفصيل الآيات هنا هم أولوا المعرفة الراشدة، الذين يميزون بين ما يعلم بطريق الحس، وما يعلم بطريق العقل، وما يعلم بطريق الشرع، فيأخذون كل علم من طريقه المخصوص به، وهم هنا يعلمون أن ما حرّمه الله على عباده لايعرف إلا من طريق الوحي، فلا يفترون على الله الكذب ولا يقولون هذا حلال وهذا حرام بغير برهان من الله.

وقد جاءت هذه الآية في سياق نعي القرآن على أهل الجاهلية دعاواهم على الله بغير الحق أنه أمر بكذا أو حرم كذا من غير سلطان أتاهم، فقبل ذلك بآيات قال تعالى:

---

٥٦) سورة النمل : الآيات : ٥٠-٥٢
٥٧) سورة الأعراف: الآية :٣٢

"وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إنّ الله لايأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لاتعلمون"[٥٨].

وفي سورة الأنعام مناقشة تفصيلية للذين حرّموا أنواعا من الأنعام بغير برهان من الله، ومن ذلك قوله تعالى "ثمانية أزواج، من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، قل ءآلذكرين حرّم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، نبئوني بعلم إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، قل ءآلذكرين حرّم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لايهدي القوم الظالمين "[٥٩].

ومثل ذلك قوله بعد ذكر بعض أحكام الأسرة: "وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون"[٦٠].

فالمراد هنا: أنهم يعلمون بما لديهم من فقه ورشد: أن الله لايشرع إلا ما فيه الخير والصلاح لهم، فهم أهل علم و وعي لا أهل جهاد.

ومثل قوله تعالى:"وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون"[٦١]. فليس المراد هنا أنهم يعلمون علما معينا من علوم النقل أو العقل، بل المراد أنهم ليسوا من أهل الجهل والغباء.

وهذا ما يوجد أيضا في حالات نفي العلم، كما في قوله تعالى"وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتي يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لايعلمون"[٦٢]. فليس المقصود نفي علم معين عنهم من علوم الشرع أو الكون، بل المقصود نفي العلم من حيث هو، أي أنهم ليسوا بأهل علم ومعرفة.

---

٥٨) سورة الأعراف: الآية :٢٨
٥٩) سورة الأنعام :الآيات : ١٤٣، ١٤٤
٦٠) سورة البقرة:الآية : ٢٣٠
٦١) سورة الأنعام: الآية : ١٠٥
٦٢) سورة التوبة:الآية ٦

ونحوه قوله تعالى: "رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون"[٦٣].

ومثله في سورة أخرى: "كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون".[٦٤]

وقوله: "ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لا يعلمون"[٦٥].

فالناظر في هذه الآيات وما شابهها يفهم أنها لاتنفي علما معينا من علوم الدين أوالدنيا، إنما تنفي العلم من حيث هو، فهؤلاء ليسوا من أهل العلم الذين يقام لهم وزن أو يحسب لهم حساب، بل هم من أهل الجهل الذين لايعلمون.

وخلاصة القول:

أنّ العلم الذي أشار إليه القرآن الكريم ليس مقصورا على ما قام على الملاحظة والتجربة ولا على العلم الديني فقط، بل يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء وتزول به غشاوة الجهل والشك عن عقل، ثم التفضيل بعضها على بعض بقدر الحاجة إليه فلا حاجة إلى البيان وقد فضل الله بعض رسله على بعض والله أعلم.

٦٣) سورة التوبة: الآية :٩٣
٦٤) سورة الروم : الآية :٥٩
٦٥) سورة الجاثية : الآية : ١٨